CircassianNews.com

كل الشكر للفاضلة ربى الكيال لتقديمها المقالة التالية لموقع www.CircassianNews.com والتي تبحث فيها نظرة المستشرقين للشراكسة.

من ذاكرة الاستشراق :قراءة وتحليل

اعداد : ربى الكيال

يعد الشراكسةاحد العناصر المهمة من النسيج المجتمعي الشرقي في الدولة العثمانية ومصر, وقد لقوا اهتماما كبيرا من العلماء والباحثين والمستشرقين والفنانين واثروا في اعمالهم الفنية وابحاثهم وعمدوا الى ابرازهم بعدة طرق, فقاموا بتقديم الشراكسة الى العالم والمتلقيين الغربيين في اعمالهم ووثاقهم بعدة اشكال وصفات, بعض تلك الصفات جائت تمثل الحقيقة والاخرى جاءت مخالفة للواقع بطريقة متعمدة وتحمل الصفات والخصائص الاستشراقية.

الصور الاستشراقية

من المعروف ان فترة الاستشراق هي فترة زمنية ازدهرت في منتصف القرن الثامن وهي تمثل القاء الزمكاني بين الشرق والغرب, وفيها قام كل طرف وبالتحديد الغربي بتكوين صورة نمطية عن الطرف الاخر, هذه الصورة لم تكن بالطبع آنية التكوين بل تم بناؤها منذ اول احتكاك للغرب المسيحي مع الشرق المسلم خلال الحروب الصليبية حيتما بذا الطرفان بتكوين صورة متبادلة

عن بعضهما وهي في الواقع ليست صور حقيقية بقدر ما كانت صور رغبوية تخدم الصراعات القائمة وايضا تتشكل من خلالها .

هذة الصور التي راكمت نفسها على امتداد القرون الوسطى خضعت للتحول لا في نوعها وانما في آلية تكوينها فبعد ان كانت خبرة بالشرق تتم عبر الموروى والمخيال الشعبي اتخذت آليات اكثر عملية واكثر ابداعية تتلائم العصور التالية فمنذ منتصف القرن الثامن عشر تبلور عنصران رئيسيان بين الشرق والغرب : الاول هو المعرفة الاوروبية المنظمة المتنامية بالشرق وهي معرفة دعمتها المواجهة الاستعمارية كما دعمها اهتمام واسع الانتشار بالاجنبي وغير عادي استغلته علوم نامية مثل علم الاصول العرقية والتشريح المقارن وفقه اللغة والتاريخ وعلاوة على ذلك اضيفت الى هذة المعرفة المنظمة قدر لا يستهان به من الكتابات التي انتجها روائيون وشعراء ومترجمون ورحالة موهوبون .

وقد امتازت الصفة لهذة الصور الاستشراقية بعدة خصائص كالتبعية المرأه للرجل والايروتيكية واهمها بطابع "الغرائبية" وهو يمثل صفة كل ما هو غريب ومستهجن للمكنا والصفات الخارجية على حد سواء وان كان ذلك الاختلاف ينظر اليه بصورة محببة ومثيرة للاهتمام في عيون المتلقى الغربي , والغرائبية ناتجة عن الاختلاف فاي قيمة شرقية ستقابل عند الغربي بوصفها غرائبية لاختلافها عن قيمته , هذة الغرائبية ضرورية لاكساب هذة الاعمال

رواجا في الغرب حيث تكتب تميزها وجاذبيتها من غرائبيتها شكلا وايضا موضوعا على المستويين الانسان الشرقي والمكان الشرقي. فقد لفت انتباه المستشرقين لبعض القيم والعادات وعمدوا لاضافتها في اعمالهم الى حد تضخيمها لاضفاء خاصية الغرائبية عليها وبالتالي ضمان رواجها.

ومن هنا ينبيغي التمييز بين نوعين من الصور للشراكسة التي قد تصادف الباحث : صور الاستشراقية وصور اخرى واقعية :

اما الصور الاستشراقية فهي هي صور نمطية لا تمتل عادة الواقع عمد المستشرقون في اعمالهم الفنية كاللوحات الفنية اوالروايات الى اضافة طابع الغرائبية عليها وذلك بهدف ترويجها لا اكثر ففي المعاجم اللغوية نجد عدة تعريفات للصور النمطية وقارنتها بانواع اخرى من الصور :

تعريف الصورة النمطية: الصورة النمطية في معرض إشارته إلى إن الإنسان لا يستطيع أن يحيط بالعالم كله عبر مواهبه، لذا يلجأ إلى تكوين صور في خياله عن العالم الذي لا يستطيع أن يدركه عبر التجربة المباشرة من خلال حواسه وتكون هذه الصورة مقبولة لديه. وهذه الصورة " ما هي إلا تمثيل مبسط لبيئة غير حقيقية وينتج هذا التمثيل بسبب ضيق الزمن الذي يمتلكه الإنسان في هذه الحياة من جهة ومحدودية الفرص المتاحة للتعرف . الشخصي المباشر على حقائق العالم من حوله من جهة أخرى" .

و ايضا تعرف " بأنها الصورة الذهنية المشتركة التي تحملها مجموعة من الأفراد والتي تتكون غالبا من رأي مبسط أو ناقص أو مشوه و قد تتمثل بموقف عاطفي تجاه شخصأو قضية أو حدث "، أما الصورة النمطية فيعرفها بكونها " مفهوم اصطلاحي أو رأي يعده الفرد أو الجماعة مصدرا أو مطابقا بمعنى " image لنموذج عام يفتقر إلى الشخصية واصله من الطباعة "(٤) أما في المعاجم اللغوية فنجد كلمة (فكرة اوصورة او تمثيل (ليس بالضرورة مرئيا) في الذاكرة والخيال" .

لم تختلف الصورة الاستشراقية للرجل الشركسي عن الصورة الواقعية له بينما يلاحظ ان التغيير انحصر بدرجة كبيرةعلى الصورة الانثوية للمرأة الشركسية وجاءت بعيدة بدرجات متفواتة عن صورتها التقليدية الحقيقية واهتمت بالاخص بابراز عنصر الجمال .

ففي بعض اللوحات الفنية المصممة على الطراز الاستشراقي مثل لوحة الشركسية المغطاة بوشاح للفنان الفرنسي جان ليون جيروم ولوحة "فتاة شركسية" للفنان فريديرك بريدجمان نجد فيها صورة لامراءة شركسية ترتدي ملابس المرأة العثمانية بدلا من الباس القومي الشركسي وفي ذلك تحور طفيف نسبيا عن الواقع , فقد تحورت الصورة النمطية بشكل طفيف فيمابتعلق لتقدم نفس خصائص الصفات الخارجية لها باستثناء الزي والمكان حيث ظهرت بالزي العثماني وفضاء مما يوكد على قوة حضور المرأة

الشركسية في البلاط العثماني وتميز جمالها من جهة كما و يؤكد من جهه على على تبعية المرأة للرجل , تلك التبعية التي طالما امتازت بها الروايات واللوحات الفنية الاستشراقية واعتبرت من اهم خصائص الاستشراقية .

صورة 2 : لوحة "فتاه شركسية" للفنان فريدريك بريدجمان تظهر فتاة شركسية الاصل مرتدية ازياء العثمانية

بـينما نجـد ان الـبعض الاخـر مـن الـلوحـات الـفنية المـصممة عـلى الـطراز الاستشراقي تحتوي على تحور بدرجة كبيرة فجاءت اللوحة بخصائص مكانية وشكلية من بيئية تخيلية محضة , فاللوحات المرسومة من بيئة ايروتيكية عن الحريم العثماني كتصويرهم في الساحة البلاط اوالحمامات العمومية مغيرها وهي بيئة تخيلية لانه ببساطة لم يكن اي شخص احد يملك الصلاحية للدخول الى الجناح من خارج القصر او بالاحرى يدري ليجري ما يحدث هناك . فجناح الحريم قسم مخصص لسكن نساء السلطان العثماني والقائمات على الخدمة وتحيط به أسوار العالية، وجدران السميكة مما تحول دون تطلع أحد من الخارج إلى ما يدور بداخله وبذلك يصبح الحريم عالما مستقلا عن كل مايدور خارجه . كما ويذكر التاريخ مقتل اعدام احد السفراء لمجرد محاولته لمجرد محاولته استراق النظر لجناح الحريم العثماني . كما لم تقتصر صفة تبعية المرأة للرجل على اللوحات الفنية للمستشرقين وحسب بل وجاءت صور المراه مرتدية الزي العثماني ايضا في الصور الفوتوغرافية للاراشيف العليا للدولة العثمانية . وغالبا ما كانت الصفة الاستشراقية للنساء في اللوحات تتمثل في سواد الشعر الجديد وبياض البشرة وجمال تكوين الوجة والجسد وهي صفات قريبة من اشكالهم الحقيقية .

من ابرز الاماكن التي برزت فيها الصور الاسشتراقية للشراكسة :

1 – معرض بارنم في الولايات المتحدة الاميركية : هو معرض اقيم في الولايات المتحدة الامريكية في القرن الثامن عشر ويشتمل على عرض كل ما هو غريب ومستهجن وكان يعتبرمن اشهر المعارض انذاك, استغل فيها صاحب المعرض بارنم انتشار ظاهرة الاستشراق ذائعة الصيت وتوافد اعداد الهائلة من القوقازيين النازحيين من القوقاز الى الدولة العثمانية والشهرة التي ترافقت ما يتحلى به هؤلاء المهاجرين القوقازيين من جمال شديد وصلت اصدائة الى اقاصي اروربا , فقام باحضار فتيات اميريكيات محليات مدعيا انهن شركسيات الاصل تم تهجيرهن من القوقاز وحضرن الى الولايات المتحدة هروبا من بيعهن في سوق العبيد ,ولم يكتفي بارنم بذلك وحسب وقام ابتكر صورة جديدة للشركسة مغايرة تماما للواقع شائنه شأن اي صورة استشراقية مفتعلة للجمال الشركسي و تمتاز خصائصها بما يلي :

صورة من معرض بارنم لسيدة من اصول شركسية مزعومة وقد تم تقديهما واختيار مظهرها على الطريقة الاستشراقية مجسدة بذلك مفهوم "الجمال الشركسي" في عيون الغرب.

1-التباسات الهوية (تغير الاسم) : وهي احدى الخصائص الاستشراقية ,حيث قدم بارنم الفتيات الشركسيات المزعومات للجمهورة وقام باعطائهم اسماء وهمية غريبة وكانت تلك الاسماء تبتدء دوما بحرف ال"زين" مثل .زالوما آرغا وغيرها.

2-الغرائبية : قام بارنم باختيار ازياء غريبة لشركسياته المزعومات في المعرض كما في الشكل الاتي وهي بالطبع ازياء مبتكرة لا علاقة لها لا بالقوقاز مطلقاو وقام باختيار تسريحة شعر الاشعث الافريقي باستخدام

البيرة. ويلاحظ ان نوع التحور في الصورة التحور كان بشكل مختلف فاعطيت البعد الافريقي بدلا من الامريكي وهما ثفة مشتركة بين العبيد الافريقين والسبايا القوقازيين وكان الولايات المتحدة المكان لتحرر والهرب من تلك العبودية المحتومة عليهن.

2- الدولة العثمانية ومصر: – وابرزها اللوحات الفنية للمستشرقين امثال الفنان الفرنسي جان ليون جيروم آنف الذكر بمختلف مستويات تحورها ابتداء من تصويرها بملابس عثمانية وانتهاء بتصويرها بفضاءات مكانية مختلفة من القصر العثماني ببيئة تمتاز بايروتيكية محضة تعتمد على المخيلة وحسب كما في لوحة "تفتيش الواصليين حديثا" للفنان جوليو روساتي . كما وجاءت بعض اللوحات لتصور بعض النساء الشراكسة بخاصية اخرى الا وهي الشعور بالتكبر وفخرهم واعتزازهم بجمالهم والنظرة الدونية لكل من هم دونهم من نساء او بما يعرف ب "الاستعلاء" او "الغرائبية الاستعلائية" كما في لوحة "الحريم" للفنان فريدريك لويس .

ويعزو اهتمامه باراز العنصر حقيقة ان النساء القوازيات كانت تشكل الغالبية العظمى لجناح الحريم – معظم الجواري زوجات السلاطين في الدولة العثمانية من نساءالقوقاز–في كان فقد كان القوقاز وللاسف المصدر الاساسي لتجارة الرقيق الابيض بسبب الحروب المستمرة الدائمة

التي خضع لها القوقاز والتي كانت نتيجتها ضحايا ابرياء من النساء والاطفال يتم في سوق العبيد في اروبا والدولة العثمانية ,واشار الى هذة الضحايا الكاتب الشهير مارك توين في كتابه (الابرياء في الخارج) اثناء زيارته الى الدولة العثمانية .

الصورالواقعية وهي صور تمثل الحقيقية وردت في وثائق لرحالة وكتاب وباحثين المان، اسكتلنديين، هولنديين، ايطاليين،فرنسيين، بولونيين اضافة الى جملة من علماء من مختلف الجنسيات , وقد رسمت ووردت لتخدم الدراسات علمية او اثنية ونحو ذلك , او تم التقاطها فوتوغرافيا وهي صور تتسم بانها بواقعيتها وبعدها عن الزييف والمراوغة التي تتسم بها الصور الاستشراقية .

الصورة الواقعية للفارس الشركسي لم يطرأ عليها التغيير وجاءت مشابهة لدرجة كبيرة للصورة الاستشراقية المرسومة للفارس الشركسي الذي صور على انه ذلك (الفارس جميل الشكل) و المتحلي بمنظومة الاخلاقية (الورق خابزة) والتي اشاد بها الغرب وتعاطف معها حتى و في فترة ما الاستشراقية في منتصف القرن الثالث عشرعندما انتشار اسم الشراكسة في الاديبيات التاريخية, فقد لعب هولاء الفرسان دور مهما في تاريخ العالم فمنهم ينحدر المماليك الذين لهم الفضل دحروا الغزو المغولي عن الدولة المملوكية وكما

وشكلو عنصرا مهما في الجيش الانكشاري الذي غزا عدة اقطار في العالم تحت قيادة الدولة العثمانية .

يمكن الاطلاع على بعض من تلك الصور الواقعية الفوتوغرافية في الاراشيف العليا للدول العثمانية المتواجدة عليا في مكتبة الكونغرس في الولايات المتحدة التي حفظت فيها صور للرجال مرتديين زيهم الشركسي القومي . هذا بالاضافة للصفات الشراكسة الخارجية للشراكسة التي اوردت من قبل الرحالة والعلماء للقوقازين مرفقة مبلابسهم التقليدية مرفقة بصورة رسمت بخط ايديهم تؤكد على ما اوردو من صفات للشراكسة , فقد اشار آدم اولياري و الى عدد من الصفات الخارجية للشراكسة كالشجاعة والبأس وقوة البنية الجسدية للرجال و الشعر الاسود الفاحم , كما يتفق على تلك الصفات العديد من العلماء والباحثين امثال الهولندي يا . ستريس و الكونوليل الهولندي ن .فيتسين وغيرهم .

Рис. 2 (продолжение)

صورة من الارشيف لفتاتين من الشراكسة من منطقة كلنجيك بملابسهما التقليدية

-اهمية الأستشراق والصور الاستشراقية

باللجوء إلى الشرق، حيث البكورة الإنسانية، في إطارها الطبيعي الغريب، أحيت الثقافة الأوروبية نفسها، وأزاحت صدأ العصور القديمة من جهة، وصدت تجهم الحياة المقتحم عليها رومانسيتها مع العصر الصناعي، من جهة أخرى.. فصار الشرق، عند البعض، روح العالم وحدسه وحسّه، ومصدر الشاعرية والغرابة والإبداع والإثارة.. وأُعتبر الشرق بديلاً عن المبادئ الكلاسيكية الأوروبية الجافة، والتي سيطرت على الحياة والدين والمجتمع والفن، عصوراً طويلة.

فكانت رحلة الغرب إلى الشرق، رحلة البحث عن هذا البديل، وهي المهمة التي أخذها على عواتقهم الكتّاب والفنانون الذين زاروا الشرق فعايشوه عن قرب، أو تخيلوه عن بعد.

ولتحقيق هدفهم، أضطر هؤلاء إلى غضّ النظر عن كثير من حقائق الشرق. كتب برتران؛ " لقد زار الشرق مختلف أنواع الناس؛ الحاقدون والحمقى والأذكياء والسُذج.. غير أنه ساعد على زيادة مداركنا بأكبر قدر من أصحاب المواهب، وفهم الأشخاص الذين تلألأت أمام أنظارنا بفضلهم، جميع ألوان الصور الخيالية عن الشرق".

كانت الأعين الغربية متلهفة إلى رؤية كل جديد، ومختلف وبالأخص غريب، فأفرطوا في وصف جمال الشرق وقبحه، وأحياناً في صورة واحدة . ومن بين الاهداف بالطبع تحيقيق الشهرة والمكاسب المادية فحتا كاتب كبير مثل

فيكتور هوغو اختار لاحد كتبة عنوان استشراقي مع ان مضمون الكتاب لا يمت للاستشراق والشرق بأي صلة وذلك لان الاستشراق كان ظاهرة شديدة الرواج.

ومن هنا تبرز اهمية الستشراق بشكل عام ويمكن من خلالها استباط دور و اهمية الصور النمطية في التعريف بالشركسي للمتلقي للغربي: ففي الواقع يمكن للصورة التقليدية التي تعبر عن الواقع ان لا تلاقي النجاح والاصداء كالصور النمطية الغربية. ادرك بارنم اهمية التحوير في الخصائص واهمية الانما الاستشراقية فلم يلجأ للصورة الواقعية للتعريف بل استخدمها وحورها لتتناسب مع متطلبات بغاية تحقيق الشهرة و المكاسب المادية له . وبالفعل مهما كانت الصورة المقدمة تحتوي من مغالطات والتباسات وزيف في الحقائق فانها ستلقى الرواج والنجاح اكثر بكثير من الصورة التقليدية طالما انها ترتكز على نقاط يهتم لها المتلقي الغربي وحسب .

وجه المقارنة	الصور النمطية الانثوية في معرض بارنم	الصور النمطية الانثوية في اللوحات الاستشراقية
البعد العرقي	شركسي* x افريقي	شركسي* X عثماني
الخصائص	–التباسات الهوية – الغرائبية	–غرائبية استعلائية –الايروتيكية –التبعية
المكان	الولايات المتحدة	الدولة العثمانية ومصر
*كلمة شركسي هنا اسم عام اطلقه الاتراك و الانجليز على تشمل جميع سكان شمال القفقاس وذلك في الفترة الاستشراقية		

المصادر والمراجع:

- الاستشراق–سعيد ادوارد, ترجمة: كمال ابو اديب, مؤسسة الابحاث العربية, بيروت.
- الغرائبية في الاستشراق–جمال أبو حمدان.
- مفهوم الصورة الذهنية في العلاقات العامة– د.إرادة زياد الجبوري
- The innocents abroad–Mark Twain
- The ottoman harem–tour guide Burak Sansal
- The Circassian beauty archive –American Social History Project/Center for Media and Learning The Graduate Center, City University of New York ,in collaboration with Center for History and New Media George Mason University

Адыги, балкарцы, карачаевцы в известиях европейских авторов XIII–XIX вв. / Сост., ред. В.К. Гарданов. Нальчик: Эльбрус, 1974. С. 101 -

Адыги, балкарцы, карачаевцы в известиях европейских авторов XIII–XIX вв. / Сост., ред. В.К. Гарданов. Нальчик: Эльбрус, 1974. С. 92 -